

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مرت الدعوة الإسلامية في الدور المكي بصعوبات جمة ، وهي تشق طريقها بعزم وثبات وصبر ومعاناة ، وذلك بسبب موقف زعماء مكة وساداتها المتعصبين من الدعوة خوفاً على مصالحهم إلى أن فتح الله على المسلمين بأرض يثرب ، التي اسلم أهلها فراداً ثم أفواجاً والذين كانوا خير عون للإسلام وأهله والذين آووه ونصروه ، فكانت الهجرة فتحاً وإشراقة فجر جديد شعت بأنواره على العالم بأسره .

فكان الدور (المدني) للدعوة بداية عهد جديد ، وهو عهد ترسيخ الجذور وعهد التشريع وعهد بناء الفرد والدولة والمجتمع الإسلامي الأنموذج الصالح الذي احتذت به الأجيال السابقة واللاحقة والأجيال القادمة إلى يوم الدين .

إن الموضوع على أهميته لم أجد - بحسب إطلاعي - إلا رسالة أكاديمية واحدة في حقل التأريخ الإسلامي أنجزت في السعودية بعنوان : (مجتمع المدينة في عصر الرسول (ﷺ)) قدمها السيد عبد الله عبد العزيز إدريس والتي كانت دراسة تاريخية قيمة بحق لمجتمع المدينة في عصر الرسول (ﷺ) ، لكنها انطلقت من المصادر التاريخية في رسم صورة مجتمع المدينة ، دون أن تعتمد القرآن الكريم مصدراً أساسياً .

كما إنني لم أجد كتاباً اعتمد القرآن الكريم مصدراً وحيداً في دراسة مجتمع المدينة أو مكة إلا الدراسة الرائدة والوحيدة التي قام بها الباحث المعروف محمد عزة دروزة قبل نصف قرن في كتابه الرائع (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) ، ولم يحاول بعده أحد من الباحثين تكرار هذه التجربة ، ذلك للصعوبات التي يواجهها الباحث في مثل هذه الدراسة .

فعلى الرغم من كون القرآن الكريم فيه كل شيء ، فهو منهج للحياة ، متكامل في بنائه ، متنوع في معانيه ، متعدد في مواضيعه ، إلا أنه موجز في التفاصيل وسرد

الأحداث ، خالٍ من ذكر الأسماء ، وغير مرتب ترتيباً زمنياً بحسب تسلسل الأحداث والنزول .

ومن هنا تكمن الصعوبة باعتماد القرآن الكريم مصدراً واحداً في كتابة التأريخ ، لأن هناك إجمالاً لا يمكن تفصيله إلا بالاستعانة بكتب التفسير وكتب الحديث والسيرة النبوية وغيرها من الكتب .

ومع ذلك كله فقد اعتمدنا في دراستنا على القرآن الكريم مصدراً أساسياً لا يعلو عليه مصدر آخر ، بحيث لا تخلو صفحة واحدة من الآيات القرآنية ، وإننا لم نلجأ إلى غيره إلا عند الشرح والتفصيل والتوضيح ، كما إننا لم نأت بخبر أو رواية ، أو معلومة ، أو فكرة ، ما لم نجد ما يؤيدها من نصوص قرآنية ، لأن القرآن كما نعلم اصدق وأقدم وثيقة تاريخية وصلتنا عن تلك المرحلة يستطيع الباحث أن يعتمد عليها وهو مطمئن لخلوها من الشوائب والتلاعب ، ومن أصدق حديثاً من قوله تعالى ، وكلامه الحق : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

وهو القول الحاسم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأن الوحي كثيراً ما كان ينزل معزراً حوادث وقعت ويصف حالات قائمة ، أو يجيب عن تساؤلات أو يصحح ويرصد أموراً اجتماعية خاطئة أو يقرر حالات وظواهر اجتماعية جيدة فيعززها .

أما كتب التأريخ وكتب السيرة فإن الكثير من رواياتها على أهميتها قد يكتنفها الشبهات بسبب تأخر تدوينها ، وقد تداخل في بعضها الميول والأهواء والوضع والصنعة ، لأن التأريخ على حد قول أحد المؤرخين القدامى (بحر لا ساحل له ، وقد كثر الناس فيه التصنيف على اختلاف فنونه ما بين مختصر ومبسوط ... ومن خلال المصنفات نوادر غريبة ولطائف عجيبة ، لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع النظر بالجواهر في المعدن إلا بعد عمل كثير

(1) سورة يوسف ، من الآية : 111 .

يحصل من خلالها بغية ، فإذا التقت الجواهر من المعدن سهل تناولها لمريدها⁽¹⁾.

فكيف يكون حالنا ونحن نتعامل مع النصوص القرآنية وهو الجوهر والذهب المصفى الخال من الشوائب .

ومن هنا تبدو أهمية الموضوع الذي نحن بصدده ، مع صعوبته ، فهو سهل لمن يطلب الحقيقة ويدنو إلى أكثر من نعيم الدنيا .

هذا إذا أضفنا إليه أمراً في غاية الأهمية ، وهو أننا في فترة في غاية الأهمية والحساسية من التأريخ العربي الإسلامي ، ذلك أن المواضيع التي نتناولها غير المواضيع التاريخية الأخرى ، وإن الشخصية التي نتحدث عنها والمتمثلة بالرسول (ﷺ) ذات قدسية ومثل أعلى للمسلمين عبر الأجيال ، وهي معصومة من الخطأ والمطامع الدنيوية ، إننا أمام شخصية ليس بخليفة ولا ملك أو سلطان يمكن انتقاده أو تجريحه أو الثناء عليه في الموقف التي يخطأ فيها أو يصيب ، ذلك أن الرسول كان خلقه القرآن والذي شهد له تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽²⁾ ، فكيف يكون حالنا ونحن البشر الخطأون المعرضين للمعاصي والزلل .

لقد كان المنهج الذي سلكته في الدراسة التي نحن بصددها هو تتبع آيات القرآن الكريم وقراءتها بدقة وتمعن ومعرفة أسباب النزول وتحليله والاستعانة بكتب الحديث والتفاسير والسير وكتب التأريخ كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، مع التقصي والدقة والأمانة باختيار اقرب الروايات إلى الصحة .

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله المنزل على لسان رسوله الكريم بواسطة الوحي ، ويتكون من (114) سورة منها (28) سورة مدنية و(86) ، سورة مكية⁽³⁾ ومجموع

(1) القلقشندي ، احمد بن علي (ت821هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، دار الكتب الخديوية ، (القاهرة-1913) ، ج 1 ، ص 412 .

(2) سورة القلم ، الآية : 4 .

(3) الزنجاني، أبي عبد الله، تاريخ القرآن، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة-1935م)، ص 27-35.

آياته (6237) آية ، وتشمل السور المدنية أكثر من ثلث القرآن قليلاً ، ومجموع آياتها (1456) آية⁽¹⁾ .

وقد استعنت أحياناً كثيرة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، حيث قدم خدمة جليلة للباحثين حين بوب القرآن بحسب المواضيع أو الحروف الأبجدية التي يمكن الإفادة منه بسهولة ويسر .

أما كتب التفسير فقد اعتمدت على عدد كبير منها ، وكان في مقدمتها تفسير محمد بن جرير الطبري (ت310هـ) ، المعروف بـ(جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، وهو تفسير غني عن التعريف ، حيث فصل فيه الكثير من الآيات المتعلقة بمجتمع المدينة مع ذكره لأسباب نزول كل آية ، وذكر الروايات المختلفة والمتشابهة لكل آية مع ترجيحه لأحد الروايات ، وذكر الأسباب والبراهين المقنعة لاتخاذ هذه الرواية دون سواها بحياد وبدون تعصب .

ومن كتب التفسير الأخرى التي أفادت البحث تفسير القرطبي (ت567هـ) ، المعروف بـ(الجامع لأحكام القرآن) ، الذي عرض في تفسيره لكل آية عدة مسائل ، وفسر كل آية في عدة وجوه ، وبذلك ساعدنا على التحليل والربط والاستنتاج وترجيح الأفضل والأقرب للواقع والمنطق والعقل .

ومن كتب التفسير أيضاً تفسير الزمخشري (ت528هـ) ، المسمى بـ(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) ، والكتاب على الرغم من صغر حجمه نسبياً ، إلا انه يختلف عن بقية التفاسير حيث ركز على أعجاز القرآن الكريم من الناحية البلاغية ، كما يمثل تفسير القرآن الكريم من وجهة النظر الاعتزالية . ولا يفوتني بالذكر والإشارة بتفسير علي بن أحمد الواحدي (ت468هـ) المسمى (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ، على الرغم من أن هذا التفسير مختصراً جاء في جزئين إلا انه كان فيه فوائد عظيمة .

(1) محمد إسماعيل إبراهيم ، سيرة الرسول (ﷺ) ومعالمها في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، دار الفكر العربي ، (بيروت-1972) ، ص5-11 .

ومثله تفسير ابن كثير (ت774هـ) ، المسمى (تفسير القرآن العظيم) ، وقد جاء في أربعة مجلدات حيث أفاد الرسالة في كثير من مواضيعها خصوصاً وان ابن كثير كان في الوقت نفسه مؤرخاً كبيراً ، وصاحب كتاب (البداية والنهاية) ، و(السيرة النبوية) ، وهو شبيه بالطبري الذي سبقه بعدة قرون حيث كان مؤرخاً وفاقها ثم كتب تفسيره العظيم فيما بعد .

أما كتب الحديث النبوي ، فقد شكلت حضوراً واضحاً في الرسالة لاسيما كتب الصحاح المعروفة ، حيث أفدت منها في دعم بعض التفاسير ، وتفصيل ما أوجزه القرآن الكريم ، كما زودتني بكثير من المعلومات التي تخص الحياة الاجتماعية في المدينة ، خصوصاً وان كتب الصحاح قد بوبت الأحاديث النبوية بحسب المواضيع بحيث يسهل على الباحث الإفادة منها .

وكان في مقدمة كتب الحديث صحيح الإمام البخاري (ت256هـ) ، وصحيح الإمام مسلم ، (ت261هـ) ، والذي افرد للسيرة والمغازي أجزاء وأبواباً خاصة بها .

وكذلك كتاب (رياض الصالحين) بهامش الفتح المبين للإمام النووي الذي اعتمدت عليه اعتماداً كبيراً مستفيدة من شروحاته الكثيرة للآيات والأحاديث النبوية. وقد اعتمدت أيضاً على كتب المغازي والسير ، وفي مقدمتها كتاب المغازي للواقدي (ت207هـ) ، والذي تميز بذكره لتفاصيل مغازي الرسول (ﷺ) وحروب المسلمين ضد أعدائهم مدعماً بالآيات القرآنية التي نزلت في هذه المناسبات وهذه المشاهد العسكرية مع إيراد تواريخ كل معركة بدقة وتحديد المواقع الجغرافية لها ، فكانت كتب المغازي خير عون لي في موضوع مغازي النبي (ﷺ) .

أما كتب السيرة النبوية لأبن هشام (ت218هـ) ، والذي كان بالأساس قد نقلها عن ابن إسحاق (ت151هـ) ، بعد تهذيبها واختصارها ، فكان مصدراً اعتمدته اعتماداً أساسياً لما فيه من النفع العظيم ، لأنه أقدم ما وصلنا مما دونه العرب المسلمون بعد كتاب الله عز وجل ، وربما سبق تدوين الحديث النبوي .

وقد أفدت من السيرة النبوية في معظم صفحات الرسالة ، ذلك أن السيرة هي شبه موسوعة تاريخية سجلت أحداث ومسيرة الدعوة الإسلامية في دورها المكي والمدني وواكبت صراع الرسول (ﷺ) مع خصومه وصورت مجتمع مكة والمدينة ، وحروب الرسول ومغازيه متبعاً للتسلسل التاريخي ومدعماً بالأخبار والروايات بكم كبير من الآيات القرآنية والحديث النبوي ومعتمداً في نقل الأخبار على سلسلة من الرواة الثقاة .

أما كتب التراجم والطبقات ، فقد كان لها نصيب كبير في الرسالة ، حيث أفدت كثيراً من كتاب الطبقات الكبرى لأبن سعد ، (ت230هـ) ، فهو يجمع بين السيرة النبوية وتراجم الصحابة على مراتبهم وطبقاتهم ، وقد اعتمدت في ترجمة الكثير من الصحابة على هذا الكتاب لما فيه من معلومات قيمة ، وخاصة في الباب الثاني فيما يخص مجتمع المدينة ، خصوصاً وإن ابن سعد قد خصص المجلد الثامن من كتابه لتراجم زوجات النبي ونساء المسلمين .

وكان كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لأبن حجر العسقلاني (ت852هـ) ، وإن كان متأخراً لا يقل أهمية من كتاب ابن سعد في هذا المجال ، فقد ترجم لمعظم الصحابة ، وأورد الكثير من الإشارات ضمن هذه التراجم إلى المأكل والملبس وتفاصيل عن الحياة الاجتماعية آنذاك .

وكذلك كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي (ت748هـ) ، وكتب أخرى لا مجال لذكرها في هذه العجالة . ومن المصادر التي اعتمدت عليها في الرسالة كذلك الكتب المؤلفة في تواريخ المدن المحلية وكتب الجغرافيين العرب أو البلدانيين .

وكان في مقدمتها كتاب تأريخ المدينة لعمر بن شبة (ت262هـ) ، وكذلك كتاب وفاء الوفا بأخبار مدينة المصطفى للسهمودي (ت911هـ) ، حيث أمدنا هذان الكتابان بمعلومات وافية عن تأريخ يثرب وأسمائها وموقعها وأهميتها قبل الإسلام وبعده ، مع ذكر بعض الأحداث التي جرت في المدينة ، وكذلك أفدت من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت626هـ) ، للغرض نفسه .

أما كتب التأريخ العام فقد كان لها نصيب في مصادر الرسالة ويأتي في مقدمتها تأريخ الرسل والملوك للطبري (ت310هـ) والذي يعد من المصادر الأساسية التي لا غنى عنها لكل باحث في التأريخ خصوصاً وإننا اعتمدنا على كتابه في التفسير ، الكتابان يكمل بعضهما بعضاً .

وكذلك اعتمدت على كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت279هـ) ، وهو وإن كان لا يشبه كتب التأريخ أو الحوليات فإن الاهتمام كان منصّباً على مغازي الرسول والفتوحات الإسلامية ، ولكنه رتب مادته ترتيباً زمنياً ، ذاكرًا المواقع الجغرافية لتلك البلدان .

وقد اعتمدت على الكثير من المراجع الحديثة من مؤلفات ورسائل جامعية وبحوث منشورة في المجالات المختلفة ، ولكنني أشير بهذا الصدد إلى ثلاثة كتب حديثة أفدت منها كثيراً وعلى رأسها كتاب محمد عزة دروزة ، (عصر النبي قبل البعثة) ، والذي اعتمد على النصوص القرآنية في تصوير بيئة الرسول وعصره في مكة أو المدينة وقد امتاز هذا الكتاب بدقة معلوماته وعمق استنتاجه والذي كان لي خير عون في جميع مراحل بحثي .

وكذلك كتاب الأستاذ احمد إبراهيم الشريف (مكة والمدينة) ، ورسالة مجتمع المدينة في عهد الرسول لعبد الله عبد العزيز إدريس .

وهناك مؤلفات حديثة متنوعة وكثيرة أفادت الرسالة ، لا داعي للحديث عنها خوفاً من الإطالة وهي موجودة في ثبث المراجع والمصادر .

أما توزيع المادة التأريخية فقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في بابين رئيسيين وفي تسعة فصول .

حيث تناولت في الباب الأول الجوانب السياسية والإدارية ، وإجراءات الرسول(ﷺ) بعد الهجرة والتمهيد لتكوين النواة الأولى لدولة المسلمين والتي استخدمت مصطلح دولة المدينة مجازاً لأنها دولة الإسلام ، التي انطلقت منها لنشر الدين الإسلامي ، وكان بفضل أهلها من المهاجرين والأنصار تكونت دولة الإسلام الكبرى ، وفيها وضعت اللبنة الأولى في النظم والتشريع وقوانين الحرب والسلام والمحالقات ،

وحقوق وواجبات الأسرة والمجتمع والأفراد ، وغيرها من الأمور التي تخص أمور الدنيا والدين ، والتي أصبحت قواعد عامة إلى يومنا هذا .

وقد جاء الباب الأول في خمسة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن مدينة يثرب والهجرة ، متناولة التمهيد للهجرة وبيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية ثم هجرة المكيين إلى يثرب حتى اكتملت بدخول الرسول (ﷺ) مهاجراً إليها .

وجاء في الفصل نفسه أيضاً لمحة تاريخية عن مدينة يثرب قبل الإسلام وبعده .

وتناولت في الفصل نفسه (تنظيم يثرب وتكوين دولة المدينة) ، وقد مهدت للفصل بالنظام السياسي في الحجاز ، ثم انتقلت إلى نظام الحكم الإسلامي في دولة الرسول (ﷺ) ، وسلطته وأساس الحكم في دولته المستندة على ركنين أساسيين هما القرآن والشورى .

ثم تناولت في الفصل نفسه القضاء والسلطة القضائية في دولة المدينة .
أما الفصل الثالث : فقد خصصته لإجراءات الرسول (ﷺ) في المدينة والدعوة إلى العمل الجماعي ، وما بناء المسجد والمؤاخاة والصحيفة إلا أمثلة على ذلك .
وقد انتقلت في الفصل الرابع من مرحلة الدعوة بالطرق السلمية وتحمل الأذى والصبر على المكاره إلى مرحلة جديدة هو الإذن بالقتال والعمل على تكوين الأمة المجاهدة .

فتناولت الخطوات التي اتبعتها الرسول في نشر الدعوة الإسلامية والعمل على توحيد شبه الجزيرة العربية ، بإعداد الجيش والاستعداد للقتال ودخول المسلمين في صراع مسلح مع قريش في بدر وأحد والخندق وغيرها من المشاهد .
وصراعه مع اليهود وحواره الفكري معهم سلباً ثم حرباً مع بني النضير وقينقاع وقريضة وخيبر وغيرهم .

أما الفصل الخامس ، فكان الخطوات والمراحل الأخيرة في وحدة الجزيرة وخضوعها لدولة الإسلام في المدينة .

وكانت البداية في صلح الحديبية التي مهدت إلى فتح مكة ثم الطائف وتبوك حتى كان نهاية الصراع مع وثنية مدن الحجاز والتي أعقبها وفود القبائل العربية تعلن ولاءها أو وطاعتها خوفاً أو رغبة ، وهو ما سُمي بعام الوفود في السنة الأخيرة من وفاة النبي (ﷺ) .

إن الرسول (ﷺ) وهو على فراش الموت كان قد بلغ رسالته وانتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وحقق وحدة العرب .

وإذا حضى المكيون بوجود المسجد الحرام في بلدهم فإن الأنصار حضوا بوجود قبر النبي (ﷺ) والمسجد الذي تشد إليه الرحال في بلدهم .

أما الباب الثاني : وهو الجوانب الاجتماعية في مجتمع المدينة :
فقد كان في أربعة فصول رئيسة ، تناولت في الفصل الأول : القبيلة لأن القبيلة كانت قبل الإسلام بمثابة الدولة التي تقوم بحماية أبنائها ، وكانت المدينة تتكون من مجموعة من القبائل ، قد بينت في الفصل مكونات القبيلة وعناصرها ... وغير ذلك .
ثم انتقلت في الفصل الثاني إلى التفصيل في عناصر سكان المدينة ، مجموعات القبيلة والدينية ، قبل الإسلام وبعده .

أما الفصل الثالث فتناولت فيه الأسرة الإسلامية في مجتمع المدينة وهي الوحدة الاجتماعية الصغيرة التي تتكون منها العشيرة والقبيلة ، مع تسليط الضوء على الأسرة في المنظور الإسلامي ، وما جاءت فيها من تشريعات وأحكام تخص الرجل والمرأة وبقية أفرادها .

ثم كان الفصل الرابع وهو خاتمة فصول الباب الثاني من الرسالة ، فقد كان عن (المستوى المعاشي في مجتمع المدينة وبعض مظاهر الحياة فيها ، كالعادات والأخلاق والطعام والملابس والاحتفالات ببعض المناسبات وغير ذلك) .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء الموضوع حقه من الدراسة ، خصوصاً وإنني قد ألزمت نفسي بأن يكون القرآن الكريم المصدر الأساسي وتكون المصادر الأخرى ثانوية لا الجأ إليها إلا عند الضرورة ، لذلك فأنا أرجو المعذرة من الأساتذة الأفاضل إن كان هناك قصور

في بعض جوانب الرسالة ، لأن هذه المادة التي قدمتها هو كل ما حصلت عليه ، ولا أدعي الإحاطة بكل شيء ، والكمال لله وحده ، فإن كانت الرسالة قد وافقت الصواب وحققت بعض ما اطمح إليه فهو بفضل الله وتوفيقه ، وإن أخطأت وقصرت فذلك من نفسي واعترف إن ما اجهله أكثر مما اعرفه ، ورحم الله من أهداني عيوبي .

الله ولي التوفيق